أدب الفقهاء

-٣-

ولم أعرج على ذكر القضاة أمثال شريح ويحيى بن أكثم وأحمد بن أبي دؤاد ، فانهم بحكم منصبهم الكبير ومداخلتهم للخلفاء وتعلق آمال الناس بهم ومدح الشعراء لهم وقيامهم في المقامات المشهودة وتمكنهم من ناصية الكلام ، قد ارتفعوا عن مستوى الفقهاء الذين لا يُظَنّ بهم الأدب وينتقَد شعرهم بجافاته لأساليب العرب . . على أن تتبع ذلك يطول فلننتقل الى طبقة الفقهاء المتقدمين من أتباع المذاهب بعد ما ذكرنا من شعر فقهاء التابعين والأئمة المجتهدين . فمنهم :

أحمد بن المعذل

من فقهاء المالكية الكبار ، ولم يكن لمالك بالعراق أرفع منه ، كان يسمى الراهب لفقهه ونسكه ، وكان يُعدَل بأحمد بن حنبل ، وهو أخو عبد الصمد بن المعذل الشاعر المشهور وكان يسكن مع أخيه في دار واحدة . وكان عبد الصمد منهمكاً في الشراب ، فكان أحمد يبكر إلى صلاة الصبح وهو إمام المسجد ، فيمر بأخيه وهو سكران ، فيحركه ويقول : (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض) الآية . وتارة يقول (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا) الآية . فيقول عبد الصمد ويرفع رأسه (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية .

ومن شعره ما رواه المبرد قال : رأيت أحمد بعرفات مضحياً للشمس لا يستظل . فقلت ما هذا يا أبا الفضل ؟ فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ضَحيتُ لكيما أستظل بظله إذا الظل أضحى في القيامة قالصا
فيا أسفي إن كان سعيك باطلاً ويا حزنا إن كان أجرك ناقصا

قال في المدارك : وأنشد له الحضرمي :

أخو دنف رمته فأقصدتـــه سهام من لحاظك لا تطيش
قواتل لا قداح سوى احورار بهن ولا سوى اللحظات ريش
أصبن سواد مهجته فأضحى سقيماً لا يمـــوت ولا يعيش
كئيب إن تحمل عنه جيش من البلوى ألمّ به جيوش

وهذه الأبيات في رقتها وجزالتها لا تصدر إلا عن طبع مهذب وشعور عميق بالجمال ، وهو الجمال البشري المرموق المعشوق ، لا ما يرمز اليه الصوفية من جمال الحضرة العلية ، فان هذه النزعة لم تكن ظهرت في ذلك الوقت . وقد تستغرب من صاحب البيتين آنفي الذكر ، ولكن الأمر هو على ما يعهد في أصحاب النفوس ذات الحساسية البليغة ، من شدة التأثر بالمواقف العاطفية والمشاهد الوجدانية .

فشاعرنا الفقيه لما كان بعرفات متعرضاً لنفحاتها مستغرقاً في روحانية مشاعرها لم يملك إلا أن يكون كما رآه المبرد ويقول ما قاله من ذلك الشعر المطبوع بطابع الزهد والتقى . وفقيهنا الشاعر أمام العيون التي في طرفها حور لم يستطع أن يخفي انفعاله بسحرها ووقوعه في أسرها ، فقال تلك الأبيات الرائقة المعجبة التي لا تُؤتَى من ضعف في الشكل ولا في المضمون . إنها طبيعة واحدة فما يصدر عنها وإن اختلف في صورته لا يختلف في مادته ، والشعر ليس خاصاً بالكاس والطاس وما كان من ذلك بسبيل ، فرب أبيات في المطالب العالية للنفس أقرب الى الشاعرية من كثير من الشعر الذي يقوله أصحابه في الهوى والشباب مما يظن أنه مادة الشعر الأولى . على أنه لا بد من تدبير النفس بين نَزَعاتها المختلفة والتنقل بها من حال الى حال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولله مني جانب لا أضيعه وللسهو مني والبطالة جانب

وقال المبرد : ذكر الدولابي في كتاب نزهة الأسرار أن ابن المعذل قال له أهله حين ورد القاضي يحيى بن أكثم البصرة : لو أتيت يحيى فسألته ، وقد أصابهم ضر ، فلم يجبهم . ثم قال هذين البيتين :

تُكَلِّفُني اذلالَ نفسي لعزها وهان عليها أن أذل وتُكْثِرَا

تقول سل المعروف يحيى بن أكثمٍ فقلت سليه رب يحيى بن أكثما

هكذا جعل القاضي عياض في المدارك البيتين والحكاية ، لأحمد بن المعذل وجعلها ابن خلكان في الوفيات لأخيه عبد الصمد وهما بحال صاحبنا أحمد أشبه .

القاضي عبد الوهاب

ومنهم القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر ، من أعلام مذهب مالك من أهل بغداد ، ونبت به على عادة البلاد بذوي فضلها كما قال ابن بسام في الذخيرة فغادرها الى مصر ، وشيعه جمع من أهلها وطلبة العلم فيها متأسفين لرحيله عنها فقال لهم لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين في كل يوم ما عدلت عنكم فأطرقوا ولم يحيروا جواباً . وفي ذلك يقول :

سلام على بغداد في كل موطن وحُقَّ لها مني سلامٌ مضاعَف

فو الله ما فارقتها عن قِلىً لها واني بشطّيْ جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علي بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كخِل كنت أرجو دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالف

وقال فيها لمّا ضاقت به الحال :

بغداد دار لأهل المال طيبة وللمفاليس دار الضنك والضيق

ظلّتُ حيرانَ أمشي في أزقّتها كأنني مصحف في بيت زنديق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قالوا واجتاز أثناء رحيله الى مصر بمعرة النعمان وبها يومئذ أبو العلاء المعري فأضافه وقال فيه من أبيات :

والمالكي ابن نصر زار في سفر بلادَنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكاً جدلاً وينشر الملك الضلّيل إن شعُرا

والملك الضليل هو امرؤ القيس . وكفى بها شهادة لشاعرية هذا الفقيه من أبي العلاء فيلسوف الشعراء ، وطاب له المقام بمصر ورغد عيشه ولكنه ما لبث أن اعتـــل ومات . وفي مرض موته قال الكلمة المأثورة : « لما عشنا متنا » وكانت وفاته عام ٤٢٢ .

ومن رقيق شعره في الغزل :

ونائمـــة قبلتهـــا فتنبهت فقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد
خذيها وكُفّي عن أثيم ظُلامَةً وإن أنتِ لم ترضَيْ فألفاً على العد
فقالت قصاص يشهد العقل أنه على كبيد الجاني ألذُّ من الشهد
فقالت ألم نُخبَر بأنك زاهد فقلت بلى. مازلتُ أزْهد في الزهد

ونشير إلى استغلال القاضي عبد الوهاب لمعلوماته الفقهية وتضمينها في هذه القطعة الشعرية بما زادها طرافة ولم يبعد بها عن صناعة الشعر ، كما ألمعنا لذلك فيما مضى ، ونظّرْنا له بأمثلةٍ من شعر المتنبي وغيره . والمسألة هنا تتعلق بالغصب وحكمُه أن الغاصب اذا رد الشيء بحاله فلا تَبِعة عليه . وذلك ما تضمنته الأبيات المذكورة مع غاية التفنّن .

وللقاضي عبد الوهاب أبيات في نقد المجتمع لم تزل على لسان كل واعظ ومصلح اجتماعي وهي قوله :

متى تصِلُ العطاشُ الى ارتواء اذا استقت البحارُ من الرّكايا
ومَن يَشْني الأصاغرَ عن مُراد وقد جلس الأكابرُ في الزوايا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإن ترفّع الوضعاء يوماً على الرفعاء من احدى البلايا
إذا استوت الأسافل والأعالي فقد طابت منادمة المنايا

منصور الفقيه

ومنهم منصور بن اسماعيل عرف بالفقيه وهو من فقهاء الشافعية ، من شعره في مدح علم الفقه :

عاب التفقّهَ قومٌ لا عقول لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ماضر شمس الضحى في الأفق طالعةً أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

قال ابن خلكان : ومن هنا أخذ أبو العلاء المعري قوله من قصيدته المشهورة :

والنجمُ تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للعين لا للنجم في الصغر

فهذا فقيه شاعر يقتبس منه أحد فحول الشعراء ولا يقول في شعره مزرياً عليه أنه شعر فقيه :

وكان منصور ينحو في شعره منحى أخلاقياً وهو القائل في ذمّ الكذب :

لي حيلة فيمن ينمُّ وليس في الكذاب حيلهْ
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليلهْ

ومن شعره في تزييف ادعاءات المنجمين :

ليس للنجم الى ضر ولا نفع سبيل
إنما النجم على الأر قات والسَّمْتِ دليل

وله أيضاً :

إذا رأيتَ امرأً في حال عشرته بادي الصداقة ما في وده دَخَل
فلا تَمَنَّ له حالاً يُسرُّ بـه فانه بانتقال الحال ينتقل

وكان منصور كفيفاً . وله تآليف في الفقه . وتوفي سنة ٣٠٦ بمصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الخطابي

أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البُسْتي عُرف بالنسبة الى جده ، الفقيه المحدث الأديب صاحب التصانيف البديعة منها غريب الحديث ومعالم السنن وكان شافعي المذهب ، من شعره هذان البيتان المشهوران :

وما غربة الإنسان في شقة الهوى ولكنها والله في عدم الشكل
وإني غريب بين بُسْتٍ وأهلها وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

وله أيضاً :

فسامح ولا تستوف حقك كله وأبق فلم يستقص قط كريم
ولا تَغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرَفَيْ قصدِ الأمور ذميم

وليس أدل على شاعرية المرء من أن يسير كلامه بين الناس مسير المثل ويتقبلوه ويستشهدوا به في مثل المناسبة التي قيل فيها كالبيت الأول والثاني من هذين النموذجين من شعره ، وكلاهما مما ينبيء عن عارضة قوية ولا يستطيع ناقد أن يلزمهما بعيب فني لأن قائلهما فقيه .

وله كذلك من هذا القبيل وارتكب فيه الجناس :

ما دُمتَ حياً فدارِ الناس كلّهم فانما أنت في دار المُداراة
من يدرِ داري ومن لم يدر سوف يُرى عما قليل نديماً للندامات

توفي الخطابي ببلدة بست سنة ٣٨٨ .

المعافى بن زكريا

كان قاضياً ببغداد وكان على مذهب الإمام ابن جرير الطبري ، ولذلك يقال له الجَريري ، روى عن جماعة من الأئمة منهم أبو القاسم البَغَوي وعنه القاضي أبو الطيب الطبري وغيره ، وكان مشاركاً في العلوم حتى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان أبو محمد الباجي يقول : إذا حضر أبو الفرج وهي كنيته فقد حضرت العلوم كلها ، وكان ثقة مأموناً في روايته وله شعر حسن منه هذه الأبيات السائرة في ذي الحسد :

ألا قل لمن ظل لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب ؟
أسأتَ على الله في حكمه لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني وسد عليك طريق الطلب

وله كتاب الجليس والأنيس وتوفي بالنهروان سنة ٣٩٠ .

محمد بن داود الظاهري

يكنى أبا بكر ، وهو ولد الإمام صاحب مذهب الظاهر . وكان فقيهاً عالماً متمكناً من مادته مناظراً عن مذهب أبيه ، صنف في الانتصار له وفي أبواب الفقه والأحكام تصانيف جليلة . ولما توفي والده وجلس في حلقته استصغره الناس فسأله أحدهم عن حد السُّكْر ومتى يكون الإنسان سكران ، فقال اذا عزَبتْ عنه الهموم ، وباح بسره المكتوم ، فاستُحسِن ذلك منه وعُرِفَ موضعه من العلم .

وصنف في عنفوان شبابه كتابه الذي سماه الزَّهْرة وهو مجموع أدب أتى فيه بكل غريبة ونادرة وشعر رائق . وقسمه الى مائة باب ضمن كل باب مائة بيت ، يذكر في خمسين منها جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، ويذكر في الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية . فهو من أعظم الكتب التي ألفت في الحب بالعربية وأقدمها ، ويحتوي بهذا الاعتبار على ١٠٠٠٠ بيت . وقد نشر منه النصف الأول باعتناء المستشرق الدكتور نيكل منذ أكثر من ثلاثين سنة . ولعله هو الذي فتح الباب لابن حزم في تأليفه لكتاب طوق الحمامة في الموضوع ، لا سيما وابن حزم كما هو معلوم على مذهب داود الظاهري والد مترجمنا ومن أكبر أئمته . .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن شعر محمد بن داود في الحب والغزل :

أنزّه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال المحرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه يُصبُّ على الصخر الأصم تهدما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري فلولا اختلاسي رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فما أن أرى حباً صحيحاً مسلما

وحكى ابن أبي الدنيا أنه حضر مجلس محمد بن داود فجاء رجل فوقف عليه ورفع له رقعة فأخذها وتأملها طويلاً وظن تلامذته أنها مسألة ثم قلبها وكتب على ظهرها وردها الى صاحبها . فنظرنا فاذا الرجل علي بن العباس المعروف بابن الرومي الشاعر المشهور وإذا في الرقعة :

يابن داود يا فقيه العراق أفتنا في قواتل الأحداق
هل عليهن في الجراح قصاص أم مباح لها دم العشاق

وإذا الجواب قوله :

كيف يفتيكم قتيل صريع بسهام الفراق والاشتياق
وقتيل التلاق أحسن حالاً عند داود من قتيل الفراق

فالفقيه الذي يساجل ابن الرومي الشاعر المكثر المبدع لا يمكن أن يقدح في شاعريته أو ينازع في صنعة الشعر . بل ان الفقيه الذي كان أول من وضع مؤلفاً شعرياً خاصاً بالحب وشؤونه حري أن يكون حجة على كل من ينكر الشعر والأدب والفن على الفقهاء .

(يتبع) عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net